

الإعارة الرقمية: حاجة القراء وعوائق الخدمة

فرناندو خواريث أوريخو



المخلص:

يناقش المقال تجربة الإعارة الرقمية في المكتبات العامة الإسبانية من منظور مهني نقدي، مقارنةً وعود الإثابة بسهولة القراءة الرقمية خارج المكتبة. ويعرض أثر قلة العناوين وتشتت الفهارس وتعقيد إدارة الحقوق وشروط الترخيص في إحباط المستفيد والموظف. كما يتناول كلفة الخدمة وحدود تحكم المكتبات في الاختيار والإدارة، وما قد يترتب على ذلك من استنزاف موارد وصورة مؤسسية ضعيفة. ويميز بين الاعتراض على النموذج القائم والافتتاح بضرورة الإعارة الرقمية، داعيًا إلى شروط أعدل وأدوات أبسط ومجموعة أوسع وتفاوض مستمر. ويبرز أعمال الملك العام والقراءات التي تسمح بتطبيق المبادئ المكتبية. وتبقى البيانات والأمثلة والأحكام مرتبطة بمرحلة التقييم الأولى التي يصفها المصدر، دون تعميمها على الخدمات الحالية.

الكلمات المفتاحية: الإعارة الرقمية، الكتب الإلكترونية، المكتبات العامة، إدارة الحقوق الرقمية، سياسات الترخيص

«ليس لدينا»:

عندما افتتحت مكتبة بلدي موسكيت في بيثايا عام 1987، وعدد سكانها 7600، كانت المجموعة صغيرة جدًا وتكررت هذه العبارة كثيرًا. وعلمتنا التجربة أن الإجابة السلبية لا تتكرر ثلاث مرات للشخص نفسه؛ إذ يكف عن العودة. وكان هبوط إحصاءات السنوات الأولى بعد انقضاء أثر التجربة الجديدة محبطًا.

وكان العلاج بعض الصبر، وحسن إنفاق المال القليل لبناء رصيد أساسي جيد كمًا ونوعًا، ومنع تدخل أعضاء المجلس البلدي في اختيار مواده، لإحياء مكتبة ناشئة ضعيفة. واليوم يصل المستفيدون فورًا إلى رصيد يتجاوز كثيرًا نسبة ثلاثة كتب لكل ساكن، مع خدمة إعارة بين المكتبات فعالة ومقدرة.

وإن لم يوجد المطلوب في الشبكة أمكن شراؤه وإعارته بسرعة؛ ونادرًا ما نقول «ليس لدينا». وأعترف أنني أرى المسؤولية البلدية عن الثقافة أقل مما أرغب. وقد كان تحديد أوجه النقص وامتلاك حرية اتخاذ القرار وتنفيذه عاملين أساسيين في هذا التطور. المستفيدون راضون والمهنيون يشعرون بتقدير عملهم؛ وأرى أن الزمن والتقنية أفادا كتب المكتبة المطبوعة. وعندما بدأت إعارة الكتب الرقمية في إقليم الباسك عام 2014، كان الرصيد ضئيلاً، ولعل العبارة

نفسها تكررت مع إتاحة 1500 كتاب فقط لنحو 700 ألف قارئ محتمل. وكان 2015 أول عام كامل لتقييم (eLiburutegia) في الباسك و(eBiblio) في بقية الأقاليم الإسبانية، ولا يبدو أنه أَرْضى القراء أو المكتبات. ينبغي الصبر وعدم استعجال الحكم بعد سنة واحدة، لكن لا يجوز تجاهل دلالة النتائج: الخدمة لا تعمل كما توقعنا.

وفي تحليل إطلاق (eBiblio) في الأندلس قال (Antonio-Agustín Gómez-Gómez) (2015): لم ننجح في الاحتفاظ بمن أرادوا التعرف إلينا واستخدموا منصة الإعارة مرة؛ وهذا يبين للأسف أننا وصلنا متأخرين، وأن ما نقدمه، وخاصة طريقة تقديمه، لا يثير اهتمام القراء الرقميين بما يكفي.

وفي رأيي ليست المشكلة التأخر؛ بل قد يتيح لنا التأخر تجنب أخطاء الرواد إذا حللنا تجاربهم. المشكلة هي إطلاق الخدمة بشروط سيئة، وهو ما لا يقتصر على المكتبات الإسبانية (Milliot, 2015).

حين تناقض الممارسة النظرية:

هل تتجاهل المكتبات الإمكانيات الرقمية؟ أحدثت (Amazon) عام 2007 ثورة في سوق الكتاب الإلكتروني عبر (Kindle)، وجعلت البساطة سمتها. ومن جرب اختيار الكتاب وتنزيله وقراءته المتزامنة على أجهزة متعددة يعرف ما يطلبه من أي مورد: البساطة والموثوقية. ونظريًا يتفوق الإلكتروني على المطبوع في كفاءة التوزيع والبيع، ومن الطبيعي أن ينتظر قارئه وصولًا أسرع. كما أن الأجهزة الجديدة سهلة، ومن أسرار نجاحها الاستغناء عن أدلة الاستخدام. وبعد سبع سنوات لم يكن طلب استثمار سهولة الوصول والاستخدام في الإعارة المكتبية كثيرًا.

ولذلك يشير الاستغراب أن يكون نطاق العناوين المتاحة محدودًا، وأن نعجز عن تقديم فهرس متكامل للعثور على الكتاب، وأن نفرض (DRM) معقدًا يستبعد أصحاب (Kindle)، وأن نتجاهل طبيعة المحتوى الرقمي ونطبق شروطًا أشد من الورق.

وأمام واقع فرضته شروط سوق النشر التي لا يعرفها المستفيد، نضطر إلى الإكثار من شرح التنزيل، وغياب أداة إدارة خاصة تيسر الأمور، وصناعة نشر تعاقبنا، ونموذج نقدمه ولا نريده. وكانت النتيجة أن الإعارة الإلكترونية مثلت 1% من إعارات 2015. ولا نحدن أنفسنا؛ إعارات العام الأول لـ(eBiblio) و(eLiburutegia) تعكس المشكلة نفسها التي تعكسها 170 مليون إعارة في المكتبات الأمريكية في الفترة ذاتها (Overdrive, 2016).

فتأخير إتاحة الإصدارات الرقمية، و(DRM) المتعسف، والأسعار الزائدة، وشروط الوصول التي لا أجد لها وصفًا سوى العبثية عند مقارنتها بعدد إعارات الكتاب الورقي قبل استبداله، كلها تقيد الخدمة. وإذا تركنا لغيرنا فرض المحتوى وطريقة استخدامه، فما دور المكتبات؟ وهل هذه الوساطة التي نريدها وتفيدنا؟

فتور تجاه القراءة الرقمية أم رفض لنموذج الإعارة؟:

لا أدري هل تعكس النسبة الصغيرة عدم اهتمام، ولا أظن ذلك، أم ردًا على إطلاق رديء لا يحتمل المقارنة بتجربة (Amazon) أو البدائل. وأتفق مع (Gómez-Gómez) في أننا ربما تأخرنا عن المستخدم المبكر الخبير بمصادر قراءته. لكن من يسأل المكتبة عن القراءة الرقمية ليس خبيرًا بالأجهزة والصيغ والقنوات البديلة و(Calibre)؛ بل مواطن يربط القراءة المجانية المشروعة بالمكتبة ويلتمس العون. ولو أتاح شرح تفعيل الجهاز الحوار معه وبناء الألفة وإظهار قيمة العمل لما كان عبثًا. لكن المكافأة بعد الجهد ليست المرجوة: الرواية غالبًا غير موجودة؛ فيعزف بعضهم عن الشاشة، ويذكرنا آخرون بسهولة العملية خارج المكتبة. ولذلك عندما أدعو سائلًا عن الإعارة الإلكترونية إلى إحضار جهازه، أتوقع إجابًا مزدوجًا له ولي حيث ينبغي أن أرى فرصة.

وأشعر أنني أضر صورة مكتبة تعد بما لا توفره. فلا نملك التأثير في بناء المجموعة أو شروط إعارتها، والرسالة إلى القراء أن المكتبة العامة ليست أنسب مكان لمن يريد كتابًا إلكترونيًا. وإذا كان هذا مشكلة مع من لا يزال يربط القراءة بالمكتبة، فقد يكون كارثة مع الأجيال الجديدة.

ليس هكذا، شكرًا:

كان يفترض أن تحقق الإعارة الرقمية تقدمًا كبيرًا، لكنها تبدو إخفاقًا: رصيد وموارد قليلان وتدخل كثير، كما في بداياتي في الثمانينيات، بفارقين كبيرين: لا نملك حرية التحرك لمعالجة المشكلة، ولم يعد حل «ليس لدينا» متمثلًا في مكتبة عامة أكبر.

ولا يعمل الصبر ومرور الوقت لصالحنا. نعرف النظرية جيدًا: تحتاج خدمة الإعارة الرقمية العامة إلى فهرس أوسع ما يمكن، وتطبيقات تيسر الاستخدام المحمول، والتوجه للمستفيدين المحتملين في الوسائط الرقمية والشبكات الاجتماعية، وإرادة سياسية تدعم دون تدخل.

وقد لا تكفي هذه العناصر الأربعة لكنها تبدو ضرورية (Ruiz-Domènech, 2015). ونحتاج إلى القدرة على تطبيقها، وهو ما لا يتوقف حاليًا على المكتبات وحدها. تشجع المكتبة قراءة تحترم حقوق المؤلف، وتدفع جيدًا مقابل الخدمة، ويمكنها التصدي للقرصنة إذا سُمح لها بالإدارة بمعايير مكتبية؛ لكن ذلك ليس هدفنا الأساسي. وأنظر إلى حصيلة العام وأسأل: هل يستحق الأمر دفع أكثر مقابل محتوى لا يزيد المجموعة، ويعقد الإدارة ويستنزف مال الخدمات الأخرى وجهدها؟

بل يضر صورة المكتبة أيضًا (Albanese, 2016). ويقلقني مهنيًا النفور الذي يولده ذلك: لا أشعر بالانتماء إلى الخدمة ولا أعدد خدمتي. لا أشك في ضرورتها، لكن بنموذج آخر؛ مثل النموذج المعروف المجرب «مستفيد واحد، عمل واحد، مدة إعارة واحدة» (Merlo-Vega, 2013; Eblida, 2013)، والمكتبة هي التي تضع الشروط والضمانات. وأرى أن الأذى عدم تبديد الموارد، ودعم خيارات للقراءة تتيح تطبيق مبادئنا، كإظهار أعمال الملك العام، وترك المحتوى المكلف ولو مؤقتًا للضغط، مع التمسك بقول «لا نريده بهذه الصورة، شكرًا».

مواصلة المساومة:

ما دمنا تأخرنا، يمكن الانتظار قليلًا. ففي كل تفاوض لحظات لتحسين الشروط. وتحتاج حجج الضغط، كهشاشة صناعة النشر والقرصنة والاستهلاك المسؤول للثقافة، إلى حجج مضادة: بناء مجموعة رقمية نملكها، ودفع سعر عادل، وإزالة (DRM) المتعسف، والواقعية والتنازل لتيسير التقدم لا تعنيان قبول شروط تثقل الخدمات الأخرى إلى ما لا نهاية. الوضع قابل للتغير، ويجب مواصلة المساومة في سوق الكتاب الرقمي.

المراجع:

- eLiburutegia (2016). <http://www.slideshare.net/liburutegiak/eliburutegia-57459522>
- Ministerio de Educación, Cultura y Deporte (2016). eBiblio 2015, 14 marzo. <http://goo.gl/1Werkz>
- Calibre Ebook management. <https://calibre-ebook.com>
- Albanese, Andrew R. (2016). "The next big step for ebooks in libraries". Publishers weekly, 15 Jan.
- <http://goo.gl/EViceF>

- Gómez-Gómez, Antonio-Agustín (2015). "Balance del primer año de funcionamiento de 'eBiblio Andalucía': el servicio de préstamo de libros electrónicos de las bibliotecas públicas". La mar de libros, 9 nov. <https://goo.gl/9JinQX>
- Eblida (2013). El derecho a leer en electrónico. http://www.eblida.org/News/The-right-to-e-read_es.pdf
- Merlo-Vega, José-Antonio (2013). "El préstamo de libros electrónicos en las bibliotecas: entre las realidades y los deseos". Diarium, 1 nov. <http://diarium.usal.es/merlo/2013/11/prestamo-libros-e/>
- Milliot, Jim (2015). "New study finds low levels of digital library borrowing". Publishers weekly, 27 Nov. <http://goo.gl/UEoHYH>
- Overdrive (2016). "Library readers borrow record numbers of ebooks and audiobooks in 2015". Overdrive, 5 Jan. <http://goo.gl/pbkhab>
- Ruiz-Domènech, Bernat (2015). "Primeras cifras de uso de eBiblio en Catalunya". Bibliotecas. Verba volant, scripta manent, 20 julio.